د. قدوري ريم فتيحة

محاضرة السابعة: أطروحة الحتمية التكنولوجية لمارشال ماكلوهان.

أولاً: مفهوم الحتمية التكنولوجية

تعد النظرية التكنولوجية لوسائل لإعلام من النظريات الحديث التي تحدث عن دور وسائل الإعلام وطبيعة تأثيرها على مختلف المجتمعات، ويعتبر "مارشال ماكلوهان" من مؤسسي هذه النظرية وهو من أشهر المثقفين والباحثين في النصف الثاني من القرن العشرين.[1] **وبشكل عام يمكن القول أن هناك أسلوبان أو طريقتان للنظر إلى وسائل الإعلام من حيث:**

1. نظرة **تقوم على أنها وسائل لنشر المعلومات والترفيه والتعليم:**(أي أننا نهتم أكثر بمضمونها وطريقة استخدامها والهدف من ذلك الاستخدام).
2. **نظرة تقوم على أنها جزء من سلسلة التطور** التكنولوجي التي بدأت تغير وجه المجتمع كله شأنها في ذلك شأن التطورات الفنية الأخرى،(فنحن نهتم حينئذ بتأثيراتها، بصرف النظر عن مضمونها).

يقول" مارشال ماكلوهان: أن مضمون وسائل الإعلام لا يمكن النظر إليه مستقلا عن تكنولوجية الوسائل الإعلامية نفسها، فالكيفية التي تعرض بها المؤسسة الإعلامية الموضوعات، والجمهور الذي توجه له رسالتها، يؤثران على ما تقوله تلك الوسائل، ولكن طبيعة وسائل الإعلام التي يتصل بها الإنسان تشكل المجتمعات أكثر مما يشكلها مضمون الاتصال.[2]

فحينما ينظر "ماكلوهان" إلى التاريخ يأخذ موقفا نستطيع أن نسميه بالحتمية التكنولوجية[3]، فبينما **كان "كارل ماركس"** يؤمن بالحتمية الاقتصادية، وبأن التنظيم الاقتصادي للمجتمع يشكل جانبا أساسيا من جوانب حتميته وبينما **كان "فرويد" (Freud)** يؤمن بأن الجنس يلعب دورا أساسيا في حياة الفرد والمجتمع، كان "ماكلوهان" يؤمن بأن الاختراعات التكنولوجية المهمة هي التي تؤثر تأثيرا أساسيا على المجتمعات.[4]

وقد **تابع "ماكلوهان" هذه الفكرة بشكل أكثر تعمقا ليعرف أهميتها التكنولوجية،** مما جعله يطور فكرة محددة عن "الصلة بين وجود الاتصال الحديث في المجتمع والتغيرات الاجتماعية التي تحدث في ذلك المجتمع"، **ويقول "ماكلوهان"** أن "التحول الأساسي في الاتصال التكنولوجي يجعل التحولات الكبرى تبدأ،

---

[1] عبد الرزاق محمد الدليمي، نظريات الاتصال في القرن الحادي والعشرين، دار اليازوري للنشر والتوزيع، 2016، ص300.

[2] نفس المرجع.

[3] Silverstone ,(Roger), Compte rendu de l'ouvrage, letters of Marshall ……, In Medias, culture et société, 10 Mars, 1988, p 390.

[4] عبد الرزاق محمد الدليمي، مرجع سابق، ص301.

ليس فقط في التنظيم الاجتماعي، ولكن أيضا في الحساسيات الإنسانية"، والنظام الاجتماعي في رأيه يحدده المضمون الذي تحمله هذه الوسائل.

وبدون فهم الأسلوب الذي تعمل بمقتضاه وسائل الإعلام لا نستطيع أن نفهم التغيرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على المجتمعات. **فإختراع اللغة المنطوقة هو الذي ميز بين الإنسان والحيوان** ومكن البشر من إقامة المجتمعات والنظم الاجتماعية، **وبدون اختراع الكتابة ما كان التحضر ممكنا**، بالرغم من اختراع الكتابة ليس الشرط المسبق الوحيد للحضارة إلا أنه بفضل الكتابة، تم خلق شكل جديد للحياة الاجتماعية وأصبح الإنسان على وعي بالوقت، وأصبح التنظيم الاجتماعي يمتد إلى الخلف (أي إلى الماضي) وإلى الأمام (أي المستقبل) بطريقة لا يمكن أن توجد في المجتمع شفهي صرف.

يعرض ماكلوهان أربع مراحل تعكس في رأيه تطور التاريخ الإنساني:

1) المرحلة الشفوية كلية، مرحلة ما قبل التعلم، أي المرحلة القبلية.
2) مرحلة كتابة النسخ التي ظهرت بعد هومر في اليونان القديمة واستمرت ألفي عام.
3) عصر الطباعة: من سنة 1500 إلى سنة 1900 تقريباً.
4) عصر وسائل الإعلام الإلكترونية: من سنة 1900 تقريباً، حتى الوقت الحالي.

إن طبيعة وسائل الإعلام المستخدمة في كل مرحلة، تساعد على تشكيل المجتمع أكثر مما يساعد مضمون تلك الوسائل على هذا التشكيل.

كما يشير ماكلوهان إلى : أن **وسائل الإعلام الإلكترونية** ساعدت في انكماش الكرة الأرضية وتقلصها في الزمان والمكان، حتى **أصبحت توصف ب (القرية العالمية Global Village)**، وبالتالي زاد وعي الإنسان بمسؤوليته إلى درجة قصوى، ويرى أيضا، أن هذه الحالة الجديدة أدت إلى ما يمكن تسميته **ب(عصر القلق)**، لأن الثورة الإلكترونية الفورية الجديدة تجبر الفرد على الالتزام والمشاركة بعمق.[5]

[5] محمد عبد الرزاق الدليمي، مرجع سابق، ص304.

هذه الرؤية من قبل ماكلوهان كانت موضع انتقاد وتشكيك من بعض الباحثين في الأعوام الأخيرة، فيرى البعض منهم أن "القرية العالمية" في حاجة لتعديل يتناسب مع العصر ويتسق مع معطياته، ويشير **ريتشارد بلاك إلى أن: "القرية العالمية" لم يعد لها وجود حقيقي** في المجتمع المعاصر، موضحا أن التطور التقني الذي استند إليه ماكلوهان عند وصفه للقرية العالمية استمر في مزيد من التطور، وأدى إلى **تحطيم هذه القرية العالمية وتحوليها إلى شظايا**، مبينا **أن العالم الآن أقرب ما يكون إلى البناية الضخمة التي تضم عشرات الشقق السكينة** يقيم داخلها أناس كثيرون، وكل منهم يعيش في عزلة ولا يدري عن جيرانه الذين يقطنون معه في البناية.

ويمكن أن يوصف هذا التطور بأنه تحول من(التجميع) إلى (التفتيت)،أو اللامركزية، حيث أتاحت تقنيات الاتصال الحديثة عددا من خدمات الاتصال المتنوعة (اندمجت جمعيها في الشبكة العالمية الإنترنت) مخاطبة الأفراد وتلبية رغباتهم الذاتية، وقد نتج عن هذه التقنية الجديدة تقلص أعداد الجماهير التي تشاهد برامج الشبكات الرئيسية وخدمات الإذاعة المسموعة والتلفزيون التي تعمل بنظام البث الهوائي التقليدي.

وتفسيرا لرؤية "التجميع" و"التفتيت"، فإن الاتجاه الجديد للاتصال وتدفق المعلومات عالميا بدأ يتجه نحو اللامركزية في الاتصال، حيث يقدم رسائل متعددة تلاءم الأفراد والجماعات، من خلال مظهر يتحكم فيه المرسل وآخر يتحكم فيه المستقبل، بعد أن ظل الاتجاه السابق لوسائل الاتصال الجماهيرية يميل إلى توحيد الرسائل وتعدد الجماهير المستقبلة.

ومما تقدم يمكننا القول أن الحتمية التكنولوجية: من النظريات الحديثة التي ظهرت نتيجة التطورات في تكنولوجيات الإعلام والاتصال، والتي تعبر عن الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في الوسط الاجتماعي واهم التأثيرات الجوهرية التي كان سببها الرئيسي وسائل الإعلام وتكنولوجياتها التي غيرت نمطيا في نضام المعلومات والسلوك الإنساني.

وهي نظرية اختزالية تهدف إلى توفير صلة سببية بين التكنولوجيا وطبيعة المجتمع. يحاول أن يشرح لمن أو ما يمكن أن يكون له سلطة مسيطرة في الشؤون الإنسانية. تتساءل النظرية عن مدى تأثر الفكر أو الفعل البشري بالعوامل التكنولوجية.

ثانياً: افتراضات الحتمية التكنولوجية:

أ -وسائل الاتصال امتداد لحواس الإنسان:

يرى "ماكلوهان" أن "وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أو يضطر إلى استخدامها ستحدد طبيعة المجتمع وكيف يعالج مشاكله وأي وسيلة جديدة هي امتداد للإنسان، تشكل ظروفا جديدة محيطة تسيطر على ما يفعله الأفراد الذين يعيشون في ظل هذه الظروف، وتؤثر على الطريقة التي يفكرون ويعملون وفقا لها". **أي أن الوسيلة امتداد للإنسان،** فالملابس والمساكن امتداد لجهازنا العصبي المركزي، وكاميرا التلفزيون تقُد أعيننا والميكروفون يقُد آذاننا، والآلات الحاسبة توفر بعض أوجه النشاط التي كانت في الماضي تحدث في عقل الإنسان فقط، فهي مساوية لامتداد الوعي.[6]

يرى ماكلوهان أن : وسائل الإعلام الإلكترونية – كإمتداد لحواسنا– غيرت في توزيع الإدراك الحسي، أو كما يسميها "نسب استخدام الحواس" Sensory Ration، فامتداد أي حاسة يعدل من طريقة تفكيرنا وتصرفاتنا وإدراكنا للعالم من حولنا. **ولكي تمنع احتمال التهديد التكنولوجي يؤكد "ماكلوهان"** أهمية إحاطة الناس بأكبر قدر ممكن من المعلومات عن وسائل الإعلام لأنه "بمعرفة كيف تشكل التكنولوجيا البيئة المحيطة بنا، نستطيع أن نسيطر عليها ونتغلب تماما على نفوذها أو قدرتها الحتمية".

وفي الواقع، بدلا من الحديث عن الحتمية التكنولوجية، قد يكون من الأدق أن نقول أن المتلقي يجب أن يشعر بأنه مخلوق له كيان مستقل، قادر على التغلب على هذه الحتمية التي تنشأ نتيجة لتجاهل الناس لما يحدث حولهم وأنه **اعتبار التغير التكنولوجي حتميا لا مفر منه،** ذلك لأننا إذا فهمنا عناصر التغير يمكننا أن نسيطر عليه ونستخدمه في أي وقت نريده بدلا من الوقوف في وجهه.[7]

ب – الوسيلة هي الرسالة:

نظرية "مارشال ماكلوهان" ما تزال حتى اليوم أكثر النظريات الإعلامية انتشاراً ووضوحاً في الربط بين الرسالة والوسيلة الإعلامية، والتأكيد على أهمية الوسيلة في تحديد نوعية الاتصال وتأثيره، **حيث يرى ماكلوهان (أن الوسيلة هي الرسالة)**، ويوضح أن مضمون وسائل الإعلام لا يمكن النظر إليه مستقلا عَن تقنيات الوسائل الإعلامية فالموضوعات والجمهور التي توجه له مضمونها، يؤثران على ما تقوله تلك الوسائل، **ولكن طبيعة وسائل الإعلام التي يتصل بها الإنسان، تشكل المجتمعات أكثر ما يشكلها مضمون الاتصال.**

---

[6] حسن عماد مكاوي، ليلى حسن السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية 2002 ، ص 325.
[7] عبد الرزاق محمد الدليمي، مرجع سابق، ص302.

يرفض "ماكلوهان" نقاد وسائل الإعلام الذين يدعون أن وسائل الإعلام (الإلكترونية)الجديدة ليست في حد ذاتها جيدة أو رديئة، لكن الطريقة التي تستخدم بها هذه الوسيلة أو الوسائل هي التي ستحد أو تزيد من فائدتها، **ويقترح "ماكلوهان" بدلا من ذلك أنه علينا أن نفكر في طبيعة وشكل وسائل الإعلام الجديدة،** فمضمون التلفزيون الضعيف ليس له علاقة بالتغييرات الحقيقية التي يسببها التلفزيون، كذلك قد يتضمن الكتاب مادة تافهة أو كلاسيكية ولكن ليس لها دخل بعملية قراءته، فالرسالة الأساسية في التلفزيون هي التلفزيون نفسه (العملية نفسها)، كما أن الرسالة الأساسية في الكتاب هي المطبوع .

ويشير ماكلوهان إلى أن لكل وسيلة خصائص خاصة بها جمهور من الناس الذين يفوق حبهم لهذه الوسيلة اهتمامهم بمضمونها، **فالرأي الذي يقول أن وسائل الإعلام أدوات يستطيع الإنسان أن يستخدمها في الخير أو الشر، رأي تافه عند "ماكلوهان".**[8]

ت –وسائل الاتصال الباردة، والساخنة:

لقد إبتكر "ماكلوهان" مصطلحات تقسم الاتصال إلى فئات أو وسائل "الساخن" و"البارد"، ليصف في نفس الوقت بناء وسيلة الاتصال أو التجربة التي يتم نقلها ومدى تفاعلها.

- **الوسائل الباردة:** تلك التي تتطلب من المستقبلِ جهدا إيجابيا في المشاركة والمعايشة والاندماج فيها (الكتابة والتلفون والتلفزيون وسائل باردة).
- **الوسائل الساخنة:** فهي تلك الوسائل الجاهزة المحددة نهائياً، فلا تحتاج من المشاهدة أو المستمع إلى جهدٍ يبذل أو مشاركة أو معايشة (مثل الطباعة والإذاعة والسينما فهي وسائل ساخنة).

وما نطلق عليه كلمة "بارد" يستخدم عادة في وقتنا الحاضر لتعني الجدال الذي ينغمس به الناس بشدة. ومن ناحية أخرى الاتجاه البارد كان يعني الحياد الذي يميل إلى الابتعاد وعدم الاهتمام، **وكلمة "ساخن"** أصبحت غير مستخدمة حينما طرأت تغيرات عميقة على طريقة النظر للأمور، ولكن التعبير الدارج "بارد" ينقل قدرا إلى جانب الفكرة القديمة "ساخن" فهو يشير إلى نوع من الالتزام والمساهمة في ظروف تتضمن قدرات الفرد كلها.

فالوسيلة "الساخنة" هي الوسيلة التي لا تحافظ على التوازن في استخدام الحواس أو الوسيلة التي تقدم المعنى مصنوعا جاهزا إلى حد ما، مما يقلل احتياج الفرد للخيال لكي يكون صورة للواقع من العلاقات التي تقدم إليه. **أما الوسيلة "الباردة"** فهي الوسيلة التي تحتاج إلى أن تحافظ على التوازن بين الحواس، وتحتاج لقدر كبير من الخيال.

[8] WASTON (Wilfred), **du cliché à l'archétype : la foire du sens**, Montréal – Paris, Hurtubise- Maine, 190, p 96.

يسمي "ماكلوهان" التلفزيون وسيلة باردة والصحافة وسيلة ساخنة بسبب المدى الذي تشترك به حواسنا في كل منها وتأثير كل وسيلة على بناء المجتمع يتوقف إلى حد كبير على درجة حرارتها، فإن الوسيلة الساخنة تسمح بمساهمة أقل من الوسيلة الباردة.[9]

المطبوع وسيلة ساخنة يفرض نمطه على الصفحة، يتكرر بلا نهاية وهو يقوم على التجريد ويحمل الإنسان بعيدا عن العلاقات الوثيقة المعقدة إلى أسلوب الحياة الحديثة من القبلية إلى الأممية ومن الإقطاع إلى الرأسمالية ومن الحرفية إلى نطاق الإنتاج الواسع، ومن الحكمة إلى العلم...الخ

الحديث الشفهي على العكس من ذلك وسيلة باردة فهو يطور حوارا واستجابة ورجع صدى وأنماط معقدة ومتداخلة للعلاقات الشخصية ومجتمعات مركزة في العائلة وأخلاقيات عائلية وقبلية، واعتقادا أو إيمان بأشياء خارقة.

والفكرة الرئيسة هي أن الوسيلة الساخنة تبعد، والوسيلة الباردة تقرب أو تستوعب، الوسائل الساخنة درجة المساهمة فيها أو تكمل الجمهور لما تقدمه ضئيلة أما الوسائل الباردة فدرجة مساهمة الجمهور في إكمال ما تقدمه عالية.

الراديو وسيلة ساخنة لأنه يوفر بشكل حاد وعميق قدرا كبيرا من المعلومات المسموعة العالية في وضوحها بحيث لا تتطلب سوى جهدا بسيطا من الجمهور لكي يكمله أو لا تترك شيء للجمهور لكي يكمله.

ويطبق "ماكلوهان" أيضا الاصطلاحي "ساخن" و"بارد" على التجارب وعلى الناس وعلى الدول، فيقول أن وسائل الإعلام الباردة أفضل بالنسبة للأفراد الذين يتميزون بطابع فردي إلى حد كبير، أي الأفراد الأكثر برودة يصعب إثارتهم.

على هذا الأساس نستطيع أن نفسر جميع الظواهر التي كانت في الماضي لا تخضع للفحص والدراسة مثل نجاح الشخص غير العاطفي أو غير المثير أو غير الجذاب في التلفزيون أي الشخصيات العادية. ويقول"ماكلوهان" أن التلفزيون وسيلة باردة، ترفض الشخصيات والموضوعات الساخنة أكثر من الصحافة التي تعتبر وسيلة ساخنة فلو كان التلفزيون موجودا على نطاق واسع خلال حكم "هتلر" لساعد ذلك على اختفاء "هتلر" بسرعة.

ويفسر أيضا نجاح "كندي" في الانتخابات على "نيكسون" سنة 1960 م لأن "كندي" استعمل التلفزيون في حملته الانتخابية عكس "نيكسون".

[9] ياسين مازن عرفة، مجتمع المعلومات العالمي والنموذج الحضاري، عمان، دار الورق، 2002 م، ص69.

ثالثاً: النقد الموجه للحتمية التكنولوجية:

بينما يعتبر "ماكلوهان" أن تأثير الوسيلة نفسها نافع ومفيد، إلا أن تأثيرات الرسالة نفسها متنوعة أكثر من الوسيلة نفسها بحيث لا يمكن فصل واحدة عن الأخرى، فالأخبار في الرأي هي الأخبار بصرف النظر عن الوسيلة التي تنقل بها.

كما أن هناك حاجة إلى التفكير في موضوع الخيال الذي يحتاج إلى نوع ما من الاتصال وهو الأمر الذي لفت "ماكلوهان" أنظارنا إليه، فهناك من يقول أن قدر الخيال الذي تحتاج إليه ترجمة المطبوع إلى صور واقعية أكبر من ذلك الذي تتطلبه مشاهدة التلفزيون، كما أن هناك من يقول أن غياب الصوت في الأفلام الصامتة يحتاج إلى خيال أكبر من الخيال الذي تحتاج إليه الأفلام الناطقة.

كلا من "ماكلوهان" و"هارولد إينيس" يعتبران أن نمو وتطور المطبوع إلى عصر التلفزيون الجديد وأن التلفزيون سوف يعيد التوازن الصحي للحواس وسوف يجعل الفرد يهتم بأمور أخرى غير شؤونه الخاصة ما سوف يعيد الأحاسيس القبلية إليه ف"ماكلوهان" يرى أن مد جهازنا العصبي تكنولوجيا يغمسنا في حركة تجمع عالمية للمعلومات وتمكن الإنسان من إدماج البشرية كلها داخله، لكنه هنا يجمع الناس إلكترونيا فقط.

قد نختلف أو نتفق مع ماكلوهان ، ولكن إذا لم تكن (الوسيلة هي الرسالة) فمن الواضح أنها أخطر من مجرد أداة لزيادة عدد الجماهير من القراء والمستمعين والمشاهدين. وإذا كان من الصعب إيجاد دليل قوي لإثبات هذه الأفكار أو رفضها، فإنها على الأقل **تجعلنا نتساءل عما إذا كانت وسائل الإعلام لها القدرة على تغيير الإنسان؟**

وقد كان المفكر الجزائري "عزي عبد الرحمن" من أشد المتأثرين به وأظهر نظرية جديدة تسمى "الحتمية القيمية الإعلامية" وقد بدأت الدراسات على هذه النظرية في أمريكا وفرنسا ويمكن الرجوع إلى كتابه "نحو فكر إعلامي متميز" وتعود هذه النظرية إلى إسهامات "ماكلوهان" وتعتبر نظرية الحتمية القيمية الإعلامية هي الأساس في فهم وسائل الإعلام ومضامينها وتأثيرها وتعتبر أن وسائل الإعلام تولد السالب والموجب وفق درجة الارتباط بالقيمة وتتضمن النظرية العديد من المفاهيم المستحدثة كالخيال والوضع وفعل السمع والبصر والخيال الإعلامي والمرئي وسلم الحقائق...الخ.